الانزياح البلاغي في الأفعال وأثره ببلاغة المعنى القرآني

م. د. صفاء صالح عبد الحميد

safaa.s.abdulhameed@aliraqia.edu.iq

كلية الآداب/ الجامعة العراقية

Rhetorical Deviation In Verbs And The Impact Of The Quranic Meaning

Dr. Safaa Saleh Abdulhameed
Aliraqia University College of Arts

المستخلص

ينطلق هذا البحث من القرآن الكريم بوصفه نصاً متفرّداً ببلاغته، تكاملت فيه البنية اللغوية مع المقصد الدلالي المراد من التعبير القرآني الذي أسهمت صيغ الأفعال في بناء معناه وإيصال رسالته بأقصى درجات التأثير في النفس البشرية، واهتم البحث بظاهرة "الانزياح البلاغي" في الأفعال، وهي التحول من صيغة فعلية إلى أخرى في الآية الواحدة باعتبارها من الأدوات التعبيرية المهمة التي يتجلّى فيها الإعجاز التعبيري القرآني، إذ لا تُستعمل صيغ الماضي والمضارع على نحو تقريري جامد، وإنما يتم توظّيفها بحسب مقتضيات السياق والدلالة التعبيرية.

وقام البحث أساساً على فكرة أن هذا التحول بين الصيغ الفعلية يحمل في طياته أبعاداً بلاغية ونفسية عميقة، تتجاوز حدود الدلالة الزمنية الظاهرة إلى دلالات أخرى، وأن هذا التحول لا يخدم المعنى اللغوي فحسب، بل أدى وظائف نفسية وتربوية أو في تصوير بعض السلوكيات للأمم السابقة التي ركّز عليها القرآن، وقد فتح البحث الباب لتتبع هذه الآفاق الرحبة لفهم النص القرآني، سيما وأنه كشف لنا دقة الاختيار للصيغة، وانسجامها التام مع السياق العام، والغرض البلاغي، والأثر النفسي المراد إحداثه في المتلقي.

الكلمات المفتاحية: الانزياح البلاغي، صيغ الأفعال، الأثر النفسي، الدلالة الزمنية.

Abstract

This study approaches the Qur’an as a text distinguished by its supreme eloquence, in which linguistic structure is intricately integrated with intended semantic purpose. Verbal forms play a fundamental role in constructing Qur’anic meaning and conveying the divine message with the highest degree of psychological impact on the human recipient. The research focuses on the phenomenon of rhetorical deviation in verbs, namely the shift from one verbal form to another within the same verse, considering it one of the most significant expressive devices through which Qur’anic rhetorical inimitability is manifested. Past and present tense forms are not employed in a rigid, reportive manner; rather, they are deliberately selected in accordance with contextual and expressive requirements.

The study is grounded in the premise that shifts between verbal forms carry profound rhetorical and psychological dimensions that transcend their apparent temporal meanings. Such shifts do not merely serve linguistic purposes; they also perform psychological, educational, and behavioral functions, particularly in portraying the conduct of previous nations or disbelievers as emphasized in the Qur’an. The research opens broader horizons for a deeper understanding of the Qur’anic text, revealing the precision in selecting verbal forms and their complete harmony with the overall context, rhetorical intent, and the psychological effect intended to be produced in the recipient.

Keywords:

Rhetorical Shift, Verb Morphology, Psychological Effect, Temporal Semantics.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

يمثّل القرآن الكريم الذروة العليا في البيان العربي بلا منازع، إذ لا يقتصر إعجازه على جمال الألفاظ أو انسجام التراكيب، بل يتجاوز ذلك إلى عمق الدلالة ودقّة توظيف الصيغ التعبيرية في النص، لاسيّما الصيغ الفعلية التي تُعدّ من أكثر العناصر اللغوية قدرة على تصوير الحركة الزمنية والنفسية في الخطاب القرآني، ومن هنا برزت ظاهرة "الانزياح البلاغي" في الأفعال بوصفها مظهراً من مظاهر خدمة المعنى والإعجاز الدلالي للقرآن، حيث تُختار الصيغ بعناية لحمْل شحنات معنوية ونفسية تخدم المقاصد التعبيرية.

وانسل البحث من فرضية أساسية مفادها أنَّ التحول الزمني في الأفعال في النص القرآني ليس مجرد اختلاف في الصيغة، بل هو عدول بلاغي بمقاصد بعيدة الأثر، يخدم توسع أفق المعنى من جانب، وتعميق الأثر في ذات المتلقي، فضلاً عن أبعاد نفسية وسلوكية قد لا يتم إدراكها إلا بفضل تأمل وتدقيق، فلا الماضي يدل دائما في السياق القرآني على انقضاء الحدث، كما أن المضارع لا يُحد بحدود الدلالة الزمنية الحاضرة، بل يتسع لمساحات أبعد غوراً وأشمل مدى.

وفي بحثنا هذا، الذي وضع على مبحثين: الأول: آيات الاستقامة ومآلاتها والثاني: آيات الانحراف وعواقبه، وتحت كل مبحث مطالب، تتبعنا مظاهر التحول في الصيغ، من خلال نماذج قرآنية مختارة، ووقفنا عند العلاقة الدقيقة بين الصيغة الفعلية والسياق العام للآية من جانب، وكيفية توظيف الانتقال من الماضي إلى المضارع أو العكس في بناء النص القرآني، حيث تتحول الأفعال إلى أدوات تصويرية أحياناً تنقل الحدث

من كونه خبراً في مسار تاريخي جامد، إلى كونه مشهداً حياً نابضاً يدهش المتلقي ويشركه في عمق الحدث.

ويهدف البحث إلى تتبع هذا الانتقال في الصيغ الفعلية، وما يمثله من أسلوب بلاغي في إحكام المعنى، وترسيخ القيم العقدية والأخلاقية، بما يجعل النص القرآني حاضراً في وعي المتلقي خارج حدود الزمان والمكان، مفتوحاً على قراءات بلاغية لا حدَّ لها. وقد بذلت ما في وسعي في اختيار الآيات وتتبعها وتحليلها تحليلاً دقيقاً يكشف شيئاً من أسرار التعبير المحكم، وأسأل الله تعالى السداد.

المبحث الأول: آيات الاستقامة ومآلاتها

ومن صوره:

التمسك بالدين:

قال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ﴾[1]

الآية الكريمة خص بها الله تعالى فئة متميزة من الناس، هم الذين "يمسّكون بالكتاب" أي يتشبثون به تشبثًا شديداً، ويتبعونه، ويجعلونه منهجهم في حياتهم، و"أقاموا الصلاة"، أي أدوها على وجهها الصحيح، ظاهرًا وباطنًا.

وهؤلاء وعدهم الله في نهاية الآية بعدم ضياع أجرهم، وخصهم بوصف "المصلحين"، جاء في تفسير البيضاوي: "إنا لا نضيع أجر المصلحين على تقدير منهم، أو وضع الظاهر موضع المضمر تنبيها على أن الإصلاح كالمانع من التضييع"[2].

واستعمل القرآن الكريم صيغة الفعل المضارع، وهي هنا تدل على الاستمرار والتجدد، أي أنَّ إمساكهم بالكتاب هو فعلٌ مستمر دائم غير منقطع، وقد ورد الفعل بصيغة "يُمَسِّكُون" وقد أفاد التشديد والتكثير، المبالغة في الإمساك وشدته، وهو أقوى من مجرد

"يُمسكون"، وفي التشديد لغة أوحت بأنهم لا يتركون الكتاب في أي حال وأي ظرف كان، فهم ممسكون به لاجئون إليه بظروفهم المختلفة.

ومما لا يخفي أنَّ صيغة المضارع تعطي شعوراً بالحيوية والديمومة، وأن المتلقي يشترك في الحدث وكأنَّه حدث لحظي وقع وواقع الآن حتى أنَّه يشوِّق المتلقي ويحفزه في الاندماج في الحدث وعدم التخلي عن الاتصاف به حتى قبل معرفة الجزاء، فهم مع تجدد الإمساء بالقرآن استشعر بتجدد الحياة مع كل حدث وتحت أي ظرف.

ومع هذا التفاعل الحدثي مع صيغة المضارع، ينتقل إلى الفعل الماضي "وأقاموا" وهو صيغة دلَّت على تحقق الفعل وثبوته.

ومع تأمَّل بين الصيغتين تجد أنَّها أفادت إيجازاً بأسلوب القصر تحقق إتباع الماضي المضارع، وهذا يشرح صيغة الترتيب والأهمية بالعبادات، فإنَّك إذا لم تقم الصلاة حق إقامتها فلا تستطيع أن "تمسّك بالقرآن" فالصلاة هي عماد الدين، وإقامتها تكون بالرتبة الأولى، ومن ثمَّ تنظر إن كنت ممسكا بالقرآن من عدمه، على أنَّ الجزاء هو مغرٍ أيضاً للممسكين.

ولا تخلو الآية الكريمة من إيحاء نفسي، يؤشر إلى أنَّ نضوج إقامة الصلاة بصفتها عبادة روحية هي الأساس في تهيئة النفس أولاً للعبادات الأخرى، حتى تحول الطبع والسلوك المتجذّر بإقامة الصلاة نحو الإمساك بالقرآن ليكتمل البناء السلوكي والروحي في النفس البشرية بعد فترة نضوج.

ولك أن تتأمل أدبياً، أن التباين بين الصيغتين مثَّل إيقاعاً داخلياً وكأنَّه يعكس حركة النفس الإنسانية بين العبادتين، فـ"يمسّكون" تدل على توتر حركي متجدد متفاعل مع تقوية الارتباط بالقرآن بالتجديد، وقد سبقتها طمأنينة واستقرار نفسي بعد جهد ومطاولة مع صيغة الماضي "أقاموا" وهذي هي مراحل في بناء نفس المسلم، فالتقديم اللفظي

لم يطغ على رتبة التقديم المعنوي رغم التأخر لفظياً، أي أنَّ تأخر "أقاموا" لفظاً لم يسلبها حق القدم في الواقع، وهذا متحقق من تباين الصيغتين.

واعلم أن الفعل المستقبل إذا أتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي، وذاك؛ لأن الفعل المستقبل "يوضح الحال التي يقع فيها، ويستحضر تلك الصورة، حتى كأن السامع يشاهدها، وليس كذلك الفعل الماضي، وربما أدخل في هذا الموضع ما ليس منه جعلا بمكانه، فإنه ليس كل فعل مستقبل يعطف على ماض بجار هذا المجرى"[3]

الصبر في الطاعة:

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [4]

في الآية الكريمة يتجلّى نسق بلاغي نفسي دقيق، قام على الانتقال الواعي من صيغ الأفعال الماضية المتتابعة إلى صيغة المضارع، بما يخدم بناء الصورة السلوكية لمن ذكروا بنص الآية.

وأنت تمعن النظر مع بداية السياق بالفعل الماضي "صبروا"، تجد أنَّ الصبر هنا اختيار له دلالة نفسية عميقة؛ فهو ليس حدثاً ولا لحظة عابرة، بل هو خُلُق متحقق راسخ للمؤمنين استقر في نفوسهم رغم الابتلاءات، وصيغة الماضي في هذا الموضع لا توحي بالتحقق والرسوخ فقط، بل منحت القارئ والمتلقي إحساساً بأنَّ هؤلاء بلغوا مرتبة عاليةً من الثبات، لا مجرَّد نية في داخلهم أو ادعاء يدعونه، إذ إنَّ إيراد الصفات بصيغة الماضي في سياق المدح لا يفيد مجرد التحقق الزمني فحسب، بل يفيد معه الاستقرار النفسي وتوطين النفس على تبعاته.

والسياق في الآية يعزز هذا الرأي؛ إذ يحيلنا إلى أفعال ماضية أخرى: "أقاموا الصلاة" و"أنفقوا"، وكلاهما عبادتان تتطلبان جهداً وعطاءً واستمرارية، وصيغة الماضي هنا لا تنفي الدوام عن الأفعال، بل تفيد أنَّ هذه الأفعال صارت من السمات السلوكية الثابتة في نفوس هؤلاء.

ومع هذا الاستقرار النفسي في الصفة والمتحقق لدى القارئ أيضاً، يأتي التحول في الصيغة إلى المضارع "ويدرؤون " أي ويدفعون من رأوا منه مكروها بالتي هي أحسن، وهذا الانتقال من البلاغي له أبعاد عميقة؛ فالدَّرء بالحسنة فعل متجدد، لا ينفك عنهم مع انشغالات الحياة اليومية واحتكاك الإنسان بالآخرين، فالسيئة التي قد تقع في أي لحظة أمر وارد، ليأتي إثرها الرد بالحسنة الذي لا شكَّ أنَّه يحتاج إلى يقظة نفسية مستدامة وهذه لا تتحقق إلَّا مع الفعل المضارع، لذا جاء المضارع ليدل على التجدد والاستحضار الدائم.

ومع فضل تأمّل وانتقال بين الصيغتين تجد أنَّ المضارع أفاد هنا بحالة من المراقبة الداخلية المتواصلة للنفس؛ ولنا أن نبني على ذلك أنَّ نفس المؤمن لا تتكئ على ماضٍ صالح بل تعمل وتخطط لمستقبل صالح تحوّل فيه الاستفزاز إلى إحسان، والأذى إلى تجاوز، فتجد نفسك أمام أبعاد نفسية تخطت حدود البلاغة الحرفية للآية فهي تربية سلوكية أكثر منها ضربا من الالتفات البلاغي، يدفع باتجاه تنشيط الروح الإنسانية، وكسر رتابة النسق وترك الأمور على غاربها، وربط المعنى بحركة الزمن الدائمة التي تحتاج إلى تحوط، فالماضي يرسم الأساس لكنه لا ينقضي، والمضارع يفتح زمن على الحاضر والمستقبل، ليكتمل بين الصيغتين بناء الشخصية المؤمنة، جذور ثابتة صامدة وسلوك ممتد متجدد زمنياً.

وليس لنا أن نُغفل تقديم "بالحسنة" على "السيئة" وما في ذلك من توجيه نفسي ضمني وإيحاء يُشعر القارئ بأنَّ الحسنة هي الأصل في الفعل الإنساني، لا أن تكون مجرد ردَّة فعل، وهذا من دقائق التقديم والتأخير في التعبير القرآنية الذي لا شك أنَّه يخدم تربية وتدريب النفس الإنسانية، التي تشوَّقت مع هذا التصوير الحسي لتأتي بعد ذلك النضوج في السلوكي موسم القطاف، وأي قطاف "أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّار" ليصل بهذا المسار الزمني كله الى حيث الاستقرار والمآل بعد رحلة امتدت من ماض ومن ثم حاضر.

العطاء في الدنيا:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾﴾ (5)

يستفتح القرآن الآية الكريمة بأسلوب الاستفهام التقريري "ألم تر" وهو أسلوب لا يراد به طلب العلم البتة، بل هو أسلوب يعمق تثبيت المعلوم في النفس، إذ إنَّ الرؤية هنا ليست رؤية العين المجردة، وإنما أريد بها رؤية القلب التي من معناها العلم والاعتبار؛ ولذلك أورد الفعل بصيغة الماضي "أنزل" ليؤدي وظيفة التقرير والتثبيت في نفس المتلقي، فالماضي في هذا السياق لا يحيل إلى زمن مضى وانقطع، بل إلى حقيقة مطّردة في خلق الله تعالى، وقد أشار الرازي إلى هذا المعنى، قال: "التعبير بالماضي في أفعال الله تعالى كثيراً ما يُراد به بيان تحقق الفعل وثبوته، لا انقضاء زمانه"(6)، وبذلك ينهي النص القرآني الشك قبل أن ينتقل إلى الأثر المترتب على الفعل.

ثم يأتي بعد ذاك التحول الزمني في صيغة الفعل "فتصبح" حيث عدل عن الماضي إلى المضارع، وهو لا شك عدول مقصود، لأن المضارع يُعطيك صورة الحدث في

حال تجدده ووقوعه شيئا فشيئا، كما يقرّب لك المعنى إلى الحس كأنك تراه، وبذلك لا يبقى الاخضرار "الأرض مخضرة" نتيجة ساكنة وثابتة، بل يتحول إلى مشهد حيّ يتجدد ويتجدد في ذهن المتلقي، وهذا التحول الزمني في عمق امتداده النفسي يعكس الفرق بين طبيعة الفعل الإلهي القاطع من جهة، وأثره المتدرج في الكون من جهة أخرى، فالمطر ينزل دفعة، أما الحياة فتنمو وتتشكل شيئاً فشيئاً وتظهر آثارها مع التوقيت الزمن المقرر، وهنا جاء بالفعل "تصبح" بصيغة المضارع لاستحضار صورة اخضرار الأرض عقب هطول المطر، لما في ذلك من مشهد يجسد تكرار هذه النعمة وتجددها زمنياً، وهذا المعنى يزداد نضوجاً ووضوحاً باختيار الوصف "مخضرة" الذي لا يضخم المشهد دلاليا، ومعلوم ما للخضرة من مشهد يبهج النفس.

وبعد ذاك لا يكتفي التصوير القرآني بالمشهد الحسي، حتى يذهب باتجاه تعليله عقديا بقوله: "إن الله لطيف خبير"، وهنا دلالات عميقة بعيدة الغور، وتُردُّ إلى صفتين إلهيتين تحكمان الظاهر والباطن على حد سواء، فاللطف يُفسر وقوع هذا التبدل العظيم من غير عنف ولا اضطراب، والخبرة تفسر دوافع إحكامه ودقتها جل في علاه، فهو تعالى لطيف في خلق ما ينفع خلقه، وخبير بدقائق مصالحهم واحتياجاتهم المادية والنفسية، فالآية الكريمة تتجاوز كونها تقريرا لظاهرة طبيعية في خلق الله لتغدو خطابا نفسيا ونقديا يعيد تشكيل وعي الإنسان بالزمن وبالخلق الإلهي، وبما جبل الله تعالى الحياة عليه من التجدد الدائم.

المبحث الثاني: آيات الانحراف وعواقبه

ومن صوره، الفزع من أهوال القيامة:

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (7)

تبدأ الآية بالفعل المضارع "يُنفَخُ" ثم تنتقل إلى الماضي "فَفَزِعَ" ومن ثم "أَتَوْهُ" على الرغم من أنَّ الآية تتحدَّث عن مستقبل غير واقع بعد وهو يوم القيامة، وهذا التغير الزمني هو أحد الأوجه البلاغية والدلالية في القرآن الكريم، وتحتاج إلى قراءة وتأمل؛ ففي قوله "ينفخ" حققت الصيغة حالة من الاستحضار للمشهد بصورة الحاضر، فأعطت الصيغة الزمنية للفعل إحساساً بحتمية وقوع النفخ وكأنَّ صوته يُسمع في الزمن الحاضر، وهو مشهد أدعى للتأثر وإثارة حالة الترقب المشوب بالخوف، سيّما مع الانتقال الى صيغة الماضي "فزع" الذي أقَّر في النفوس حالة الخوف تلك، وأثبت وقوع النتيجة "الفزع".

ومع الصيغتين للفعلين تجد أنَّ التوكيد محقق منهما، فضلاً عن تهويل الصورة وإقامتها في النفوس في تلك اللحظة الفارقة عند الإنسان الذي ينتظر الجزاء على ما قدَّم في حياته الدنيا، فالتعبير عن الأحداث المستقبلية بصيغة الفعل الماضي يشكل قفزة ذهنية وتصويرا عاطفياً مثيراً.

حال المشركين:

قال تعالى: ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [8]

يتجلّى في قوله تعالى في الآية الكريمة أعلاه، نموذجٌ بالغ الأثر من التشبيه التمثيلي الذي ينقل فيه المعنى العقدي (الشرك) وهو معنى مجرَّد إلى صورة حسيَّة مركّبة، وهذا التشبيه هو من أرفع أساليب البيان؛ إذ تتحول الفكرة الذهنية إلى مشهد محسوس يستولي على النفس قبل العقل؛ فالشرك هنا لا يُعرّف تعريفًا فقهياً، بل يُصوَّر تصويراً مثيراً للرعب في سقوط عنيف من علو شاهق.

ومشهد السقوط (خرَّ) هو تصوير تمثيلي واضح تقشعر له الأبدان يُشعر بفقدان الأمان والانفصال عن مصدر الحماية والطمأنينة الذي هو الإيمان الذي لم يجر له ذكر في الآية الكريمة اكتفاءً بذكر الشرك.

والمشهد المذهل هذا يرسمه القرآن بداية بالفعل الماضي "خَرَّ"، وهو اختيار أفاد الحسم والتحقق؛ فالخرور في العربية يدل على السقوط المفاجئ من غير تدرّج، وهو يُشعر بالمباغتة والعنف في الفعل، وصيغة الماضي هنا تعمّق دلالة الأثر النفسي؛ إذ توحي بأنَّ الشرك في ذاته هو فعل سقوط قد تحقق بالفعل، لا يُنتظر له أي مآل مستقبلي حتى يُدان ويُترك، بل هو من لحظة وقوعه انهيار شامل للمكانة الروحية والجسدية التي يهبها الإيمان للإنسان، وفي هذا التشبيه يقول الزمخشري: "كأنه قال: من أشرك بالله فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده نهاية، بأن صور حاله بصورة حال من خرّ من السماء فاختطفته الطير، فتفرق مزعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة"(9).

وأنت ترى التحول اللافت إلى صيغة الفعل الى المضارع في قوله تعالى: "فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ ثُمَّ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ"، لتكسر هذه المباغتة الزمنية لحالة السقوط وما يعقبها من سكون، وتنقل المتلقي إلى فضاء الاستمرار والتجدد، وأنَّ استعمال صيغة المضارع في مثل هذا السياق أريد به استحضار الصورة الذهنية وتمديد زمنها في الحس، حتى كأنَّ العذاب لا يتوقف ولا ينتهي بالسقوط الذي وقع وانقضى، أمَّا التمزق والضياع فهما حالتان دائمتان في الحقيقة، وهو ما رسّخ في عمق النفس من أنَّ آثار الشرك، أي أنها ليست لحظية، بل مستمرة.

والدلالة النفسية تتعمق في صورة "تخطفه الطير"، حيث تتجسد حالة التمزق والضياع؛ فالطير هنا رمز للقوى التي تتجاذب المشرك، الذي فارق التوحيد، إذ يصبح عرضة

لتسلط الشيطان وتقلب الأهواء، لتأتي بعدها صورة "تهوي به الريح" لتبلغ الذروة، فالريح قوة قاهرة لا تُرى ولا تُقاوم، وهنا تصوير لحالة الاستلاب التام، حيث يفقد المشرك إرادته واتجاهه، وينتهي به الأمر بأن يُقذف إلى "مكان سحيق" وهنا إيحاء بالبعد والعمق وانعدام أي أفق للخلاص.

وانظر إلى قوة هذه الصورة البلاغية، وقد استمدت قوتها الاقناعية من كونها التقطت من البيئة العربية، التي عُرفت بشراسة الجوارح، وقسوة الرياح الصحراوية وهي صورة حسية لا متخيلة.

الاغترار بالدنيا:

قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ (10)

الآية الكريمة مطلعها "أعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو ..." ضربت مثلاً للحياة التي يعيشها الإنسان وهي تغري بما فيها من زينة ومباهج، ثمَّ سرعان ما تضمحل فأنَّها تخدع الإنسان بمتع مؤقتة، والتشبيه التمثيلي المنتزع من متعدد "غيث أعجب الكفار نباته . . . " هو صورة تمثيلية لهذ الحياة المشابهة للغيث، وهذا من بديع تمثيل القرآن "فلا تَجد حالة صالحة لتمثيل هيئة اختلاط نفع وضر مثل حالة المطر والسحاب"(11)

وهذا التشبيه المتعدِّد أحال الإنسان إلى واقع مرير لا بد له أن يدركه، فالغيث زاخر والنبات الذي نتج نضج واستوى على الأرض، إلَّا أنه سرعان ما يجف ويبس "يهيج" ويستقر على حالة الاصفرار ليصل مرحلة الحصاد والزوال بعدما كان أخضراً ممتعاً للناظرين، وهذه السرعة في الاضمحلال، انحصرت في "ثم" التي أفادت العطف مع التراتب، وهي مسافة رحلة الحياة فما إن أعجب الإنسان بزهوها ونباته حتى هاجت واضمحلَّت.

وقد استعمل القرآن الفعلين الماضي "أعجب" والمضارع "يهيج" وبينهما فترة الحياة الدنيا، وأفادت صيغة الماضي التحقق والانتهاء غير القابل للتجديد ولمطاولة مهما فعلت؛ فهذا الإعجاب وما يرافقه من تمتع وإحساس بالراحة والرخاء والزهو وغير ذلك من انعكاسات نفسية لذلك الإعجاب والانبهار، سرعان ما يتلاشى فيهيج، وهذا الهيجان السريع كالثوران والغليان، لا يمكن أن يتحقق إلَّا بصيغة المضارع بعد الماضي، فبعد الإعجاب تأتي صدمة التغير السريع، وكأنَّ ما بين الفعلين صورة حسيَّة تعرض أمام ناظريك هذا الانقلاب وسرعة زوال التي ستؤول حطاماً بعد ما كان يسرح بها الناظر يمد عينه وخياله بما فيها من متع كأن لا نهاية لها.

وقد أفاد الانتقال إلى المضارع باستمرارية هذا التغير، وكأنَّك ترى الزوال وهو يأتي على الحياة الدنيا متجدداً في كل بقاعها شيئاً فشيئاً إلى أن ينتهي المشهد بالصمم، ثم تكررت صيغة المضارع "يكون حطاماً"، والحطم بحدِّ ذاته تصوير مرعب للمشهد، فهو تكسِّر الأشياء بعد أن كان لها قوام يعجب الناظر، وهذا التكسر مما لا يمكن إصلاحه، فقد ورد بصيغة الاسم الدالة على الثبوت وعدم قبول محاولات التغيير، ولا محاولات.

الصد عن سبيل الله:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ (12)

الآية الكريمة تتحدَّث عن الكافرين، وأوردت الكفر بصيغة الماضي "كفروا" وأنَّ إرادة المعنى هنا حدَّدت ثبوت الموقف العقدي عند هؤلاء؛ أي أنَّ الكفر ثابت عندهم وقد انغمسوا فيه وبلغ تمامه، والانتقال بواو العطف لصيغة المضارع "يصدّون"، هو انتقال زمني بين الفعلين (ماضٍ ثم مضارع) حمَّل مقاصد بلاغية ونفسية، وإيحاءات دلالية عميقة، فيصدون دلَّ على أنَّ صدّهم عن سبيل الله مستمر ومتجدد، وهنا فرق بين

الكفر والصد؛ فالكفر وقع بفعل ماضٍ وبات واقعا لهم، ومن تأثيراته هي الصد المتكرر والمتواصل.

ويفيد المضارع في البلاغة القرآنية التجدد والتكرار والاستمرار، مما يوحي بأن هذا الفعل (الصدّ) عادة مستمرة، وليس لحظة عابرة، والفعل "يصدّون" بصيغته المشدَّدة أفاد المبالغة، أي أنهم لا يصدّون مرة واحدة بل يبالغون في الصد والمنع والتأثير على غيرهم فهم بداية صدوا أنفسهم عن المسجد الحرام بكفرهم ثم تعمَّدوا منع الناس من الإيمان ومن المسجد، ومن اتباع سبيل الله.

وإذا ما دققنا النظر فإنَّ التباين الزمني والترتيب في الآية الكريمة له من الدلالات ما لا يُدرك بسهولة، فقدّم الكفر على الصد، إذ إنَّ الكفر هو أصل في انحراف العقيدة، وعليه يبنى الصد وما يترتب عليه من أفعال متكررة أفادت معاني المنع بقوة.

وتجد بعد تأمل في الآية الكريمة أنَّ سلوك "الصد" هو ناتج عن فعل الكفر، فإذا ما كان الكفر عقديًّا فإنَّ الأفعال التي ترتبت عليه هي أفعال سلوكية لها علاقة بالدين، فهو بات مرتكباً لسلوك انحرافي متجدد مبني على قناعة عقدية.

مشاهد العذاب:

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤ ﴾ [13]

يقدّم الخطاب القرآني في هذه الآية الكريمة نموذجا للتفاعل بين الصيغة الفعلية والأثر النفسي، حيث يُسهم التحول بين صيغ الأفعال في بناء مشهد مثير من مشاهد عذاب لا يمكن نقله نقلاً عابراً كخبر جامد، بل يُعاش تجربةً ومشهداً شعورياً متكاملاً.

ففي الفعل الماضي "أخذنا"، وهو اختيار ذو دلالة بلاغية لا يخفى عمقها؛ فالماضي هنا لا يُراد به دلالة الزمن المنقضي فحسب، بل تحقيق الوقوع وتقريره في الذات

الإنسانية، إذ إنَّ الماضي في مثل هذه السياقات التعبيرية يُستعمل لإفادة القطع واليقين، فضلاً عن أنَّه ينزل المتوقع منزلة الواقع حقيقة، فكأن العذاب الذي ورد بصيغة الماضي "أخذنا مترفيهم بالعذاب" أمر مفروغ منه، لا مجال لدفعه أو حتى محاولة تأخيره.

ومع فضل تأمل في الصيغة التعبيرية، تجد أن الخطاب يتخطى هذا النسق النسق الساكن المتحقق من العذاب، لينتقل فجأة انتقالاً زمنياً بتصوير نفسي لحال هؤلاء المعذبين ليصف حالهم بصيغة المضارع "إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ"، ومعنى الجأر أي "يَضِجُّونَ وَيَجْزَعُونَ وَيَسْتَغِيثُونَ، وَأَصْلُ الْجَأْر: رَفَعُ الصَّوْتِ بِالتَّضَرُّعِ"[14] وهذا التحول بالصيغة يزج المتلقي في قلب الحدث لا على أطرافه. وكأن الجؤار وتلك الأصوات الناتجة عن العذاب تُسمَع الآن، ويتردد صداها في كل مكان، وهذه المشاركة للمتلقي والإحساس بالحدث حققها الانتقال من الماضي الى المضارع، والمضارع هنا أبلغ في تصوير الحال واستحضار الصورة من أي صيغة أخرى.

وليس بعيداً عن لحظات الانفعال النفسي فإنَّ هذا التحول يُحاكي الانكسار الداخلي للمترف (المُعذَب)؛ الذي كان في حال سكون واستعلاء وطمأنينة، يُؤخذ بالعذاب أخذا حاسماً وبشدة "أخذنا"، فإذا به وبعد تلك الحال المترفة يدفع في حالة اضطراب نفسي وصراخ متواصل "يَجْأَرون"، والجؤار ليس مجرد صراخ عادي، بل هو "رفع الصوت بالتضرع والاستغاثة".[15]

ومع الجملة الإنشائية الواردة بصيغة النهي "لا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ"، تأتي لتحطيم نفسية هؤلاء فتزيد المشهد قسوة، فصيغة النهي هنا لم يرد منها النهي الحقيقي، بل نهي أفاد معنى التوبيخ والتقريع، وهو هنا غاية في تحطيم أنفسهم وانسداد أي طموح بالنجاة.

ومع شدة السياق القرآني يبلغ الأثر البلاغي ذروته في قوله "إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ"، حيث استعمل المضارع "تُنصرون" لنفي النصرة لهؤلاء المعذبين نفياً مستمراً، فلا نصر لهم لا في الحال ولا في المآل، فدل ذلك على الحرمان من النصر حرماناً على الدوام، وهذا التناسب ينسجم إلى حد كبير مع دلالات الأفعال السابقة "الأخذ" "الجأر" وما فيهما من شدَّة وعذاب، وكأنَّ هذا التناسب يغلق في وجوههم أفق الرجاء في الخلاص أو التخفيف، وهنا تدرج انفعالي في الخطاب، حيث لا يُكتفى بعرض المشهد فقط، بل يُبنى أثره بشكل متدرج في نفس المتلقي حدثاً حدثاً، فالمشهد ليس وصفاً مجرداً للعذاب بل إشراك المتلقي في هذه الأجواء حتى كأنَّه يشاهد بعينيه ويسمع الصراخ.

وإذا ما أمعنا النظر في المشهد القرآني فإنَّ الانتقال من الماضي إلى المضارع في الآية ليس انتقالاً شكلياً، بقدر ما هو بناء فني لحال العذاب من خبر مُنجَز إلى مشهد حي، وهنا فيتضاعف عمق الألم من عذاب جسدي، وانكسار نفسي، وانقطاع الأمل بالنجاة.

الاستهزاء بالرسل:

قال تعالى: ﴿ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ ۝٦ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ۝٧ ﴾ (16)

في الآية الكريمة يبتدئ الخطاب القرآني بـ"كم" الخبرية التي تفيد التكثير والمبالغة في العدد لا الاستفهام "كم أرسلنا من نبي" وهي تُشعر المتلقي منذ الوهلة الأولى بالامتداد الزمني للرسالات السماوية وأعداد الأنبياء الذين أرسلهم الله تعالى إلى أمم سالفة، وأنَّ هذه الرسل ليست حادثة عابرة، بل هي سنّة كونية تاريخية راسخة، وأن هؤلاء الرسل على كثرتهم كانوا يتعرضون للأذى على يد أقوامهم.

ويأتي الفعل "أرسلنا" بصيغة الماضي متناسبا مع امتداد الرسالات السماوية عبر التاريخ، ليؤدي وظيفة التقرير والحسم؛ فالماضي هنا لا يُراد به مجرد الزمان، بل تحقيق الوقوع وإفادة القطع بثبوت الخبر، ثم يُقيَّد هذا الإرسال بتخصيصه "في الأولين" ليمنح الماضي عمقاً تاريخياً ونفسياً، إذ يشعر المتلقي أنَّ ظاهرة تكذيب الرسل ليست وليدة لحظته، بل هي ممتدة في التاريخ الإنساني وليست حكراً على رسول معين ولا زمن معين.

وبعد ذاك يأتي التحول من صيغة الماضي التقريري إلى صيغة المضارع في قوله "وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ"، وقد أفاد الفعل "يأتيهم" الاستمرار والتجدد، وكأنَّ الحدث لا يزال واقعاً في الحال، وهو ما يجعل السلوك الإنساني في مواجهة النبوة حاضراً غير منقضٍ على الأقل في ذات المتلقي، وهذا من مقتضيات سلوك العِبادة والطاعة، والمضارع هنا أدلّ على استحضار الصورة من الماضي، كما أنَّه أوقع في النفس، إذا أُريد تصوير الحال وكأنها تُرى، وبذلك لم يعد الاستهزاء موقفاً تاريخياً منتهياً، بل ظاهرة نفسية متكررة تتجدد كلما تجدد الخطاب الإلهي، ويزداد هذا المعنى عمقاً حين يتبع المضارع "يأتيهم" بالماضي "كانوا" في قوله "إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ"، فـ"كانوا" تفيد الاستقرار والتحقيق على الحال لا مجرد الوقوع، و"إلا كانوا به يستهزئون" إغراء للرسول الكريم من الله تعالى، أي كل الأنبياء الذين أرسلوا من قبلك استهزء بهم أقوامهم "كاستهزاء قومك بك"(17)

والفعل "كان" هنا يدل على رسوخ صفة الاستهزاء فيهم كلما جاءهم رسول، ومن هذا التركيب تلمح عمقاً بلاغياً بين سلوك نفسي ثابت من جهة وفعل متجدد من جهة أخرى، فالرسل حالة سماوية متجددة، لكن التعامل مع الرسل يظل جامداً، وهذا التركيب البلاغي يمنح النص بعداً نقدياً يكشف بنية نفسية مقاومة للتغيير والتجديد، فهي تجد

في الرسالة السماوية تهديداً لسلطتها ومكانتها الاجتماعية، ولذلك تلجأ إلى السخرية بوصفها طريقة دفاع نفسي، قد يكون ناشئاً عن استعلاء وتكبر وإنكار لما يخالف المألوف.

ومع هذا العمق في أداء المعاني تجد أنَّ النص تجاوز تسجيل الحدث إلى تشخيص العلّة النفسية الرافضة لكل ما يشكل تهديدا لنفوذها، وأن هذه العلة تتكرر عبر العصور ومع تجدد الرسالات، وهنا فإن التحول من الماضي إلى المضارع هو أداة بلاغية جردة القصة من مسارها التاريخي الضيق وحولتها إلى قانون إنساني عام، يخاطب المتلقي في كل زمان ومكان.

الخاتمة وأبرز النتائج

خلص هذا البحث إلى أنَّ "الانزياح البلاغي" في صيغ الأفعال في الاستعمال القرآني يمثل أداة فاعلة في بناء المعنى وتكثيف أثره النفسي والدلالي، إذ أسهم التحول بين الصيغ الفعلية في استحضار الحدث، وترسيخ المقاصد من جانبها العقدي والسلوكي، وقد كشف التحليل للآيات القرآنية نتائج نجملها فيما يلي:

أنَّ العدول في الصيغ الفعلية ليس عارضاً، بل جاء قصداً بما يخدم السياق التعبيري والتصوير وإحكام النظم القرآني في توجيه المتلقي وإفهامه الرسالة الإلهية.

دلّ استعمال الماضي في مواضع مخصوصة في الآيات التي تمت دراستها في البحث، على ثبوت الفعل واستقراره وانتهائه دلالياً، لاسيّما في القضايا العقدية والمواقف الحاسمة، فيما أسهمت صيغ الفعل المضارع في استحضار المشهد وتصوير الحدث بوصفه متجدداً ومستما، مما عزّز الأثر التربوي والنفسي في ذات المتلقي.

كشف الانزياح الزمني في الأفعال عن التمييز بين البعد العقدي للفعل من جانب والبعد السلوكي المترتب عليه من جانب آخر.

نتج أيضاً عن اختلاف الصيغ الفعلية في الآيات القرآنية تكثيف الإدانة أو التبشيع في سياقات التوبيخ والوعيد، وتحويل الإخبار إلى صور حيّة تكون أكثر تأثيرا.

الهوامش

(1) سورة الأعراف: الآية ١٧٠.
(2) تفسير البيضاوي: ٤١/٣.
(3)المثل السائر: ١٤٥/٢.
(4) سورة الرعد: الآية ٢٢.
(5) سورة الحج: ٦٣.
(6) مفاتيح الغيب: ٥٥/٢٢.
(7) سورة النمل: الآية ٨٧.
(8) سورة الحج: الآية ٣١.
(9) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: ١٥٧/٣.
(10) سورة الحديد: الآية ٢٠.
(11) التحرير والتنوير:١/ ٣١٧.
(12) سورة الحج: الآية ٢٥.
(13) سورة المؤمنون: الآية ٦٤.
(14) الكشاف: ٥/ ٣٣٣
(15) مقاييس اللغة: ابن فارس: ١/ ٤٨٧.
(16) سورة الزخرف: الآية ٦ – ٧.
(17) معالم التنزيل في تفسير القرآن - تفسير البغوي: ٢٠٦/٧.

المصادر والمراجع:

١- القرآن الكريم

٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي، تح: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، (١٤١٨ هـ).

٣- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، دار سحنون للنشر والتوزيع – تونس (١٩٩٧م).

٤- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٥- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين بن الأثير، نصر الله بن محمد، تح: أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة . القاهرة (د،ت).

٦- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي، تح: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ (١٤٢٢ هـ).

٧- معالم التنزيل في تفسير القرآن – تفسير البغوي، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وأخرج أحاديثه محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، (١٤١٧ هـ – ١٩٩٧ م).

٨- معجم مقاييس اللغة: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، دار الجيل ودار الفكر – بيروت، ط٢، (د، ت).

٩- مفاتيح الغيب: الإمام العالم العلامة والحبر البحر الفهامة فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١ (١٤٢١هـ – ٢٠٠٠ م).

References

1. The Holy Qur'an.
2. Al-Bayḍāwī, Nāṣir al-Dīn Abū Saʿīd ʿAbd Allāh ibn ʿUmar ibn Muḥammad al-Shīrāzī. Anwār al-Tanzīl wa Asrār al-Taʾwīl. Edited by Muḥammad ʿAbd al-Raḥmān al-Murʿashlī. 1st ed. Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī, 1418 AH.
3. Ibn ʿĀshūr, Muḥammad al-Ṭāhir ibn Muḥammad al-Ṭāhir al-Tūnisī. Al-Taḥrīr wa al-Tanwīr. Tunis: Dār Saḥnūn li al-Nashr wa al-Tawzīʿ, 1997.
4. Al-Zamakhsharī, Abū al-Qāsim Maḥmūd ibn ʿUmar al-Khwārazmī. Al-Kashshāf ʿan Ḥaqāʾiq al-Tanzīl wa ʿUyūn al-Aqāwīl fī Wujūh al-Taʾwīl. Beirut: Dār Iḥyāʾ al-Turāth al-ʿArabī.
5. Ibn al-Athīr, Ḍiyāʾ al-Dīn Naṣr Allāh ibn Muḥammad. Al-Mathal al-Sāʾir fī Adab al-Kātib wa al-Shāʿir. Edited by Aḥmad al-Ḥūfī and Badawī Ṭabānah. Cairo: Dār Nahḍat Miṣr li al-Ṭibāʿah wa al-Nashr wa al-Tawzīʿ, n.d.
6. Ibn ʿAṭiyyah al-Andalusī, Abū Muḥammad ʿAbd al-Ḥaqq ibn Ghālib ibn ʿAbd al-Raḥmān ibn Tammām ibn ʿAṭiyyah al-Muḥāribī. Al-Muḥarrar al-Wajīz fī Tafsīr al-Kitāb al-ʿAzīz. Edited by ʿAbd al-Salām ʿAbd al-Shāfī Muḥammad. 1st ed. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah, 1422 AH.
7. Al-Baghawī, Muḥyī al-Sunnah Abū Muḥammad al-Ḥusayn ibn Masʿūd. Maʿālim al-Tanzīl (Tafsīr al-Baghawī). Verified and annotated by Muḥammad ʿAbd Allāh al-Nimr, ʿUthmān Jumʿah Ḍumayriyyah, and Sulaymān Muslim al-Ḥarash. 4th ed. Riyadh: Dār Ṭaybah li al-Nashr wa al-Tawzīʿ, 1417 AH / 1997 CE.
8. Ibn Fāris, Abū al-Ḥusayn Aḥmad ibn Fāris ibn Zakariyyā. Muʿjam Maqāyīs al-Lughah. 2nd ed. Beirut: Dār al-Jīl and Dār al-Fikr, n.d.
9. Al-Rāzī, Fakhr al-Dīn Muḥammad ibn ʿUmar al-Tamīmī al-Shāfiʿī. Mafātīḥ al-Ghayb. 1st ed. Beirut: Dār al-Kutub al-ʿIlmiyyah, 1421 AH / 2000 CE.